

الجزيرة أصل الثقافة العربية (1)

المصدر الرئيسي لأصل الثقافة العربية واللغة والأدب هو الجزيرة العربية، بكل تضاريسها، من جبالها وأوديتها وسهولها وصحرائها، وقبائلها التي سطرت تاريخ هذا المصدر الهام والمهم، منذ أيام العرب الأولى. **وطبعي** أن تغري كل هذه المعطيات الكتاب والمفكرين والمثقفين والمؤلفين ليبسطوا القول ويسطروا تلك الأحداث والأيام والأماكن في كتب ملأت رفوف المكتبات.

ولكن أشهر وأهم هذه المؤلفات التي خلدت ذكر تاريخ الجزيرة العربية كانت (عن بعد) إذ المصادر المعتبرة في تاريخ القبائل وأيام العرب وحروبهم وأشعارهم، ومعاجم الأماكن التي خلدت ذكرها حوادث أغنت المكتبات، لمؤلفين كتبوا من خارج الديار، واعتمادهم الأكبر عن المنقول والمقروء، بعيداً عن المعيشة الحقيقية الدائمة لمكان تلك الأحداث.

وإن كان البعض قد كلف نفسه عناء المرور والوقوف على ما يود الكتابة عنه، لكنه ووقوف المستعجل الذي يرى بعين ضيقة، تتمركز حول هدفه الذي وضعه مسبقاً، وفي هذه الحالة يكون هناك اختزال كبير لكثير من المفاهيم والصور الكلية للمشهد، فتجدها يختلجها قصور ما في بعض مناحيها، رغم ما قدمه هؤلاء الأفاضل من خدمة جليظة لتوثيق تلك المراحل بكل معطياتها ومكوناتها وأحداثها.

قد يكون في السابق العذر متاح لقلة إمكانيات وقلة من يمتلك أدوات البحث والتقني والتأليف والكتابة. **وكذلك** يكون المؤلف معذوراً حين يذكر - عن بعد- موضعاً ما فيقول (وهو موضع بين مكة والمدينة!) اختزل أكثر من 400 كلم في جملة بسيطة جداً.

واليوم ومع ما نشهده من رموز وأعلام ومهتمين وبتوافر التقنية الحديثة في تحديد المواقع وفق إحداثياتها، وكونها متاحة بالوضع الحقيقي لمعيشة المكان، وما يملكون من إرث له اتصال بالأجداد وهم أبناء البيئة الحقيقيون فجدير أن تكون كتاباتهم عن هذا الإرث العظيم تتصدر المشهد وتأخذ زمام الصدارة كمراجع أصيلة وأصلية لدارس الثقافة العربية والأدب والأماكن ذات الشهرة والتي كانت شاهداً على أحداث عظام.

ولن أكون مجحفاً تجاه من قدم وحاول وأبرز وأعاد دراسة المشهد التاريخي والثقافي والأدبي فلا شك إن جهودهم تذكر فتشكر، لكن ربما ينقصها شيء لم يجعلها في مقدمة المشهد المصدري للباحثين.

ف نجد أن كل من يبحث يعتمد على مصادر قديمة أُلْفَتْ عن بعد! متجاهلاً أو غير مبالي بما كتبه المتأخرون وهم كتبوا ما كتبوا عن قرب ومعايشة للواقع، فكأنهم لا يجدون في المتأخرين أوجه اقناع للمتلقين.

فعلى سبيل المثال لا الحصر مر بنا في أشعار العرب كلمة (علم) ومعناها حسب المعاجم العربية (...
وَالْعَلْمُ: النَّارُ.

قَالَ ابْنُ سَيْدِهِ: وَالْعَلَامَةُ وَالْعَلْمُ الْفُضْلُ يَكُونُ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ.
وَالْعَلَامَةُ وَالْعَلْمُ: شَيْءٌ يُنْصَبُ فِي الْفَلَوَاتِ تَهْتَدِي بِهِ الضَّالَّةُ.
وَبَيْنَ الْقَوْمِ أَعْلُومَةٌ: كَعَلَامَةٍ؛ عَنْ أَبِي الْعَمَيْثِلِ الْأَعْرَابِيِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ قَالُوا: الْأَعْلَامُ الْجِبَالُ. وَالْعَلْمُ: الْعَلَامَةُ. وَالْعَلْمُ: الْجَبَلُ الطَّوِيلُ.

وَقَالَ اللَّخْيَانِيُّ: الْعَلْمُ الْجَبَلُ... هكذا في لسان العرب لابن منظور، وإن كان (علم) في معناه بهذا المسمى حقيقة إلا إنه كان مسمى لجبال معينة ومحددة يتناقل الناس الاسم جيلاً بعد جيل، فحري بنا أن نجد من يحددها ويوثق تاريخها، فمنها جبال (علم عيس) أو (جبال علم بني رشيد)، التي تقع في الجنوب الغربي من منطقة حائل، وتقع غرباً منها حرة بني رشيد.

وفي العلم هذا يقبع قبر (عنترة بن شداد العبسي) وهو علم بني عيس وباقي غطفان يقول عنترة:
يا بارقاً عرضت من جانب الحمى فحي بني عيس على العلم السعدي.

والآخر (جبل العلم) الذي له شهرة تاريخية ويقع جنوب قرية صفينة الاثرية ديار بني سليم القديمة ومنهم صخر من آل الشريد. قالت الخنساء تماضر بنت عمرو السلمية ترثي اخاها صخرًا:
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار.

في كتب الأدب العربي عندما تمر بالبيتين السابقين تجد الشراح يذكرون (وعلم جبل) دون تحديد. **نطمع** أن تكون هناك مراجعة عامة للوقوف المباشر على تلك الشواهد الخالدة وربطها بما قيل عنها من أهلها.

وأن تكون هذه المراجعات مكتوبة ومعتمدة في مناهج التعليم العام والجامعي للتخصصات ذات الصلة محافظة على أصالة وتاريخ هذه الأرض.

ولي وقفة أخرى حول (عسيب) ونسبة البيت التالي لأمرئ القيس
(أَجَارَتْنا إِنَّ الْخُطُوبَ تَنْوِبُ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ)



محمد عوض الله العمري

